الفصل السادس

إنى لأرقب الآن من بعيد استجابات لها دلالتها صاحبت دخول التحليل النفسى إلى فرنسا التى ظلت معرضة عنه زمناً طويلاً . ويهيأ لى أننى الآن أعيش من جديد شيئاً عشته قبل ذلك وإن كان له برغم ذلك سماته الخاصة . فثم اعتراضات فى غاية السذاجة ، مثال ذلك أن الحساسية الفرنسية يسيئها ما فى مصطلحات التحليل النفسى من تصنع علمى وفجاجة (ذلك يذكر المرء لا محالة بفارس « لسنج » الخالد « ريكو دى لامارلنيير »)[1] . وأخطر من ذلك تعليق آخر ، تعليق لم يتورع عن ذكره أستاذ علم النفس بالسربون هو أن : منهج التحليل النفسى فى التفكير لا يناسب فى مجموعه العقلية اللاتينية . وواضح أن فى ذلك التعليق استهانة بالأنجلوساكسون حلفاء فرنسا ، الذين يُعدُّون مؤيدين للتحليل . إن من يسمع هذه الملاحظة لا بدّ أن يتصوّر أن التحليل النفسى كان دائماً الابن الأثير للعقلية الجرمانية ، التى احتضنته منذ لحظة الميلاد .

بدأ الاهتمام بالتحليل النفسى فى فرنسا بين رجال الأدب . ولا بد كى نفهم ذلك أن نذكر أنه منذ كتابة "تأويل الأحلام" لم يعد التحليل النفسى موضوعاً طبيًّا خالصاً . فبين ظهوره فى ألمانيا وظهوره فى فرنسا يقع تاريخ تطبيقاته العديدة على فروع الأدب والجماليات ، وعلى تاريخ الأديان وما قبل التاريخ ، وعلى علم الأساطير والأدب الشعبى ، وعلى التربية ، وهكذا . ولا صلة لأى من هذه الأمور بالطب ، إنما تتصل به عن طريق التحليل النفسى وحده . لا محل

---

(١) الجندى الفرنسى الكوميدى المحفوظ فى « مناقون بارتهلم » الذى ذهل عندما وصفت براعته اليدوية فى لعب الورق بأنها غش إذ قال : " كيف يا آنسى؟ كيف تسمين ذلك غشا ؟ أيسمى الألمان إصلاح البخت ، والقبض عليه بالأصابع ، وضمان فعله غشاً ؟ غش ! أوه ، ما أنقرها وأفجها من لغة الألمانية ! "

إذن أن أتناولها بالتفصيل فى صفحات هذا الكتاب الذى قصد به أصلاً أن يكون ضمن مجموعة سِيَر طبية ، ومع ذلك فليس بوسعى أن أغفلها كلية نظراً لأنها من ناحية لا بدّ عنها لأى تقدير صحيح لطبيعة التحليل النفسى وقيمته ، فضلاً عن أننى أخذت على عاتقى أن أقدم بياناً بالعمل الذى أديته فى حياتى . توجد بدايات معظم تلك التطبيقات فى مؤلفاتى . فقد قطعت من الطريق شوطاً هنا وهناك حتى أشبع ميولى غير الطبية . وفيما بعد سار فى إثرى غيرى (لا من الأطباء فحسب بل ومن الأخصائيين فى مختلف الميادين كذلك) وتعمقوا مختلف العلوم . ولكن حيث أن منهاجى يفرض علىّ أن أقتصر على الإشارة إلى نصيبى الخاص من تطبيقات التحليل النفسى هذه ، فلست أستطيع أن أعطى عن مداها وأهميتها غير صورة جد ناقصة .

أوحت إلىّ عقدة أوديب التى تجلى لى شيئاً فشيئاً أنها ظاهرة نفسية عامة ، بأمور عدة. فقد بدا اختيار الشاعر[1] أو اختراعه لهذا الموضوع الرهيب أمراً ملغزاً ، وكان ملغزاً أيضاً ما خلفته التثيلية المستمدة منه من أثر عنيف فى نفوس جمهور المشاهدين ، وكذلك طبيعة تلك التراچيديات الخاصة بالقدر . ولكن أمكن تفسير كل ذلك عند ما تحقق المرء أن ثمة قانوناً عامّاً فى الحياة النفسية أدركه الشاعر بكل ما ينطوى عليه من دلالة وجدانية . فما القدر والنبوءة غير تحقيق فى الخارج لضرورة باطنة ؛ وأما أن البطل يأثم دون أن يدرى وعلى الرغم من نواياه فمن الجلى أن ذلك تعبير ملائم عن الصفة اللاشعورية لميوله الإجرامية . ومن فهمنا لتراچيديا القدر هذه خطونا خطوة أخرى هى فهم تراچيديا الشخصية الإنسانية — تراچيديا هاملت التى ظلت موضع الإعجاب ثلاثمائة عام دون أن يُكتشف معناها أو يُفطن إلى دوافع مؤلفها . ويستحيل أن يكون الشاعر[2] قد أنتج بمحض الصدفة تلك الشخصية العصابية[3] التى انهارت أمام

(١) سوفوكليس واضع تراچيديا أوديب ملكا (المترجم)
(٢) شكسپير مؤلف تراچيديا هملت . (المترجم)
(٣) شخصية هملت . (المترجم)

عقدة أوديب شأن عدد لا يحصى من مثيلاتها فى الحياة الواقعية ؛ فقد واجه هاملت مهمة الانتقام من شخص آخر [١] لارتكابه فعلتين هما موضوع الرغبات الأوديبية ، وإزاء هذه المهمة شلت يداه بسبب شعوره الغامض بالذنب . كتب « شكسبير » هاملت بعد وفاة أبيه بفترة وجيزة . وقد حدت ملاحظاتى الخاصة بتراچيديا هاملت « بإرنست جونز » فيما بعد إلى القيام بتحليل كامل لهذه التراچيديا ، ثم حذا حذوه « أوتورانك » فاتخذ من هذه الملاحظات مقدمة لبحثه تخير كُتَّاب الدراما لموضوعات رواياتهم . وقد استطاع فى كتابه الضخم عن مسألة المحارم أن يبين كيف أن الشعراء طالما اتخذوا مسائل الموقف الأوديبى موضوعاً لهم ، وتتبع فى مختلف الآداب الكيفية التى اتبعت فى تحوير المادة وتعديلها وتخفيفها .

كان الحال يغرى بالانتقال من ذلك إلى محاولة تحليل الإبداع الشاعرى والفنى بوجه العموم . فقد اتضح أن مملكة الخيال ملجأ يؤسَّس إبان الانتقال المرير من مبدإ اللذة إلى مبدإ الواقع كى يقوم مقام إرضاء الغرائز التى ينبغى الإقلاع عنها فى واقع الحياة . الفنان كالعصابى ، ينسحب من واقع لا يرضى إلى دنيا الخيال هذه ؛ ولكنه على خلاف العصابى ، يعرف كيف يقفل منه راجعاً ليجد مقاماً راسخاً فى الواقع . ومنتجاته ، أعنى الأعمال الفنية ، إشباع خيالى لرغبات لاشعورية شأنها شأن الأحلام ؛ وهى مثلها محاولات توفيق ، حيث إنها بدورها تجهد كى تتفادى أى صراع مكشوف مع قوى الكبت . ولكنها تختلف عن منتجات الحلم النرجسية اللااجتماعية من حيث أن المقصود بها إثارة اهتمام الغير وأن بوسعها أن تستثير وترضى فيهم بدورهم الرغبات اللاشعورية نفسها . وزيادة على ذلك فهى تستفيد من اللذة الحسية للجمال الشكلى بوصفها "جائزة مغرية" . وإن ما يفعله التحليل النفسى هو أن يأخذ العلاقات المتبادلة بين ما تأثر به الفنان فى حياته ، وخبراته العارضة ، ومنتجاته ،

(١) عم هملت الذى دبر قتل أبيه (أب هملت) ثم تزوج أمه . (المترجم)

ويستخلص منها نفسيته وما يعتمل فيها من دوافع ــ أى ، ذلك الجزء من نفسه الذى يشارك فيه الناس جميعاً . مثال ذلك أننى ــ واضعاً هذا الهدف نصب عينى اتخذت من«ليوناردو داڤينشى » موضوعاً للدراسة ، يستند إلى ذكرى واحدة من ذكريات الطفولة قصّها هو ، ويهدف أساساً إلى تفسير صورته "القديسة أنّا مع العذراء الطفل" . ولا يبدو أن المعرفة التى تكتسب من مثل ذلك التحليل تفسد علينا الاستمتاع بإنتاج فنى ما . إن الفرد العادى قد يتوقع من التحليل بهذا الصدد أكثر من اللازم ، إذ لا بد من التسليم بأنه لا يوضح ما قد يعتبر أهم مشكلتين بالنسبة إليه . فالتحليل لا يملك أن يكشف عن طبيعة الموهبة الفنية ، ولا هو يستطيع أن يبين الوسيلة التى يستخدمها الفنان ــ أى الأسلوب الفنى .

أمكننى أن أبين من قصة قصيرة كتبها « و . جنسين » هى « جراديڤا » التى لا قيمة لها فى ذاتها ، أن الأحلام المختلقة يمكن تأويلها على نحو تأويل الأحلام الحقيقية ، وأن العمليات اللاشعورية المألوفة لنا فى " إنتاج الحلم " تتم على النحو نفسه كذلك فى عمليات التأليف الخيالى . وكان كتابى عن النكتة وعلاقتها باللاشعور عملاً جانبيًّا استمد بطريق غير مباشر من كتاب " تأويل الأحلام " . فقد لفت نظرى صديق الوحيد الذى كان مهتمًّا فى ذلك الحين بعملى أنه طالما خطر له أن تأويلاتى للأحلام تشبه النكت . وكى ألقى بعض الضوء على ذلك الخاطر ، شرعت فى فحص النكت فوجدت أن جوهرها كامن فى الطرق الفنية المستخدمة فيها ، وأن تلك الطرق هى بعينها الوسائل التى تستخدم فى " إنتاج الحلم " ــ أعنى التكثيف ، الإزاحة ، تمثيل شىء ما بضدّه أو بتفاهة ما ، وهكذا . وأدى بى ذلك إلى بحث اقتصادى عن مصدر ذلك القدر الكبير من اللذة المستمدة من سماع نكتة ما . فتبين أنه يرجع إلى التخلى مؤقتاً عن بذل الجهد فى الكبت نظراً إلى ما فى النكتة من إغراء بمنح جزاء من اللذة (اللذة المبدئية) .

وإنى لأعلق أهمية كبرى على مشاركاتى فى سيكولوچيا الدين ، تلك التى استهلت عام ١٩٠٧ بعقد تشابه ملحوظ بين عصاب الوسوسة وبين الطقوس

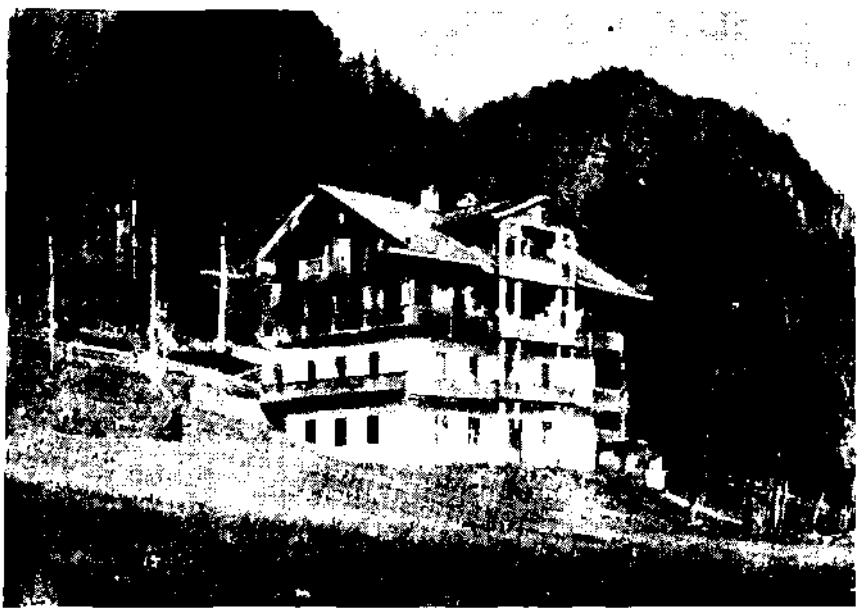

منزل فرويد الريفى فى برختسجادن

والشعائر الدينية . وقبل أن أفهم الصلات العميقة ، وصفت عصاب الوسوسة بأنه دين خاص مشوّه والدين بأنه بمثابة عصاب وسواسى عام . ثم أدت بى ملاحظات « يونج » الصريحة عام ١٩١٢ فى المشابهات القوية بين منتجات العصابيين النفسية وبين منتجات الشعوب البدائية إلى توجيه انتباهى إلى ذلك الموضوع . فبينت فى أربع رسائل ، جمعت فى كتاب بعنوان "الطوطم والتابو" ، أن الفزع من الاتصال بالمحارم أبرز لدى الأجناس البدائية منه لدى المتمدينة وأنه أدى إلى اتخاذ إجراءات خاصة للوقاية منه ؛ فحصت الصلات بين نواهى التابو (أقدم صور القيود الأخلاقية) وبين الازدواج العاطفى ؛ فاكتشفت فى التصوّر البدائى للكون الذى ينسب الإرادة للجمادات مبدأ المغالاة فى تقدير أهمية الواقع النفسى ، مبدأ "القدرة المطلقة للأفكار" ، الذى يوجد بدوره فى أساس السحر . ومضيت فى مقارنته نقطة نقطة بعصاب الوسواس المتسلط ، فبينت أن كثيراً من مسلّمات الحياة النفسية البدائية لاتزال فعالة فى ذلك الاضطراب الغريب . ولكن أكثر ما اجتذبنى الطوطمية ، أول أساليب النظام الاجتماعى فى القبائل البدائية ، أسلوب اتحدت فيه بدايات النظام الاجتماعى بدين ساذج وسيطرة صارمة لعدد ضئيل من نواهى التابو . فى ذلك النظام الكائن المقدس هو دائماً أبداً حيوان ، تدعى القبيلة أنها انحدرت منه . ومن الدلائل كثير يثبت أن كل جنس من الأجناس أيا كانت درجة رقيه ، قد مرّ لامحالة بطور الطوطمية هذا .

كانت المصادر الرئيسية التى اعتمدت عليها فى دراساتى فى هذا الميدان ، هى كتب « ج. ج. فريزر » المشهورة "الطوطمية والزواج الخارجى" ثم "الغصن الذهبى" ، وهى كنز من الحقائق والآراء النفسية . ولكن « فريزر » لم يكن له غير أثر ضئيل فى توضيح مشاكل الطوطمية ؛ فكثيراً ما عدّل تعديلاً جوهرياً فى آرائه فى هذا الموضوع ، وكذلك بدا علماء الأجناس وما قبل التاريخ فى شك وخلاف فيما بينهم . كانت نقطة بدايتى هى ذلك التقابل البارز بين الأمرين

اللذين حرمتهما الطوطمية (أعنى تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسى بأية امرأة من عشيرة الطوطم نفسها) وعنصرى عقدة أوديب (قتل الأب واتخاذ الأم زوجاً) . فأغرانى ذلك أن أساوى الطوطم الحيوان بالأب ، والواقع أن الشعوب البدائية ذاتها تفعل ذلك صراحةً ، إذ تقدسه بوصفه الأب الأول للعشيرة . وبعد ذلك جاءت لمعونتى واقعتان من التحليل النفسى : إحداهما حالة طفل عرضت « لفرنتزى » عفواً ، برّرت لنا القول "بعودة طفلية إلى الطوطمية" ، والأخرى تحليل مخاوف الأطفال من الحيوانات ، التى غالباً ما تُبين أن الحيوان بديل من الأب ، بديل حُوِّل إليه الخوف من الأب ، الخوف الذى تتضمنه عقدة أوديب ولم يبق لى إلا القليل كى أقرر أن قتل الأب هو نواة الطوطمية ونقطة البداية فى نشأة الديانة .

استوفيت هذا العنصر الناقص عند ما اطلعت على كتاب « و. روبرتسون سميث » "ديانة الساميين" . أوقفنا المؤلف (وهو موهوب جمع بين العلم الطبيعى والإحاطة بالكتاب المقدس) على ما يُعرف بوليمة الطوطم باعتبارها جزءاً رئيسيًّا فى الديانة الطوطمية . يُقتل الحيوانُ الطوطمُ ، الذى كان من قبل مقدساً ، مرةً كل عام ، يُقتل فى مراسم خاصة على مرأى من جميع أعضاء العشيرة ، ويُلتهم ثم يناح عليه بعد ذلك ، ويعقب الحداد احتفال كبير . وعند ما تأملتُ بعد ذلك فرض « دارون » أن الناس فى الأصل كانوا يعيشون قبائل ، كل منها تحت سيطرة رجل واحد قوى ، عنيف ، غيور ، خطر لى من كل هذه العناصر الفرض التالى أو بالأحرى الرؤيا التالية : حيث أن أب القبيلة كان طاغية لا حدّ لسلطانه ، فقد استولى لنفسه على جميع النساء ؛ وحيث أن أولاده كانوا غرماء خطراً عليه ، فقد قتلهم أو نفاهم . بيد أن الأبناء تجمعوا ذات يوم وائتمروا على أن يقهروا أباهم ، ويغتالوه ثم يفترسوه ، أباهم الذى كان لهم عدوًّا ومثلاً أعلى فى نفس الوقت . وبعد أن تمّ لهم ما أرادوا دبّ الخلاف بينهم فعجزوا عن الاضطلاع بما ورثوا . ولكنهم استطاعوا تحت تأثير الإخفاق والندم أن يصلحوا ذات بينهم ،

وينتظموا فى قبيلة من الإخوة مستعينين بقوانين الطوطمية، التى تهدف إلى تجنب تكرار مثل هذه الفعلة، وأجمعوا أمرهم على أن يتخلوا عن امتلاك النساء اللائى من أجلهن اغتالوا أباهم. وكان عليهم بعدئذ أن يلتمسوا نساءً غريبات، وذلك هو الأصل فى الزواج الخارجى الذى يتصل اتصالاً وثيقاً بالطوطمية. وما وليمة الطوطم غير إحياء ذكرى الفعلة الرهيبة التى نبع منها شعور الإنسان بالذنب (أو "الخطيئة الأولى") وكانت مبدأ التنظم الاجتماعى، والديانة، والقيود الأخلاقية فى آن واحد.

والآن سواء تصوّرنا أن احتمالاً هذا شأنه كان واقعة تاريخية أو لم يكن، فهو قد أدخل نشأة الدين ضمن مجال عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفى الذى يسيطر على هذه العقدة. وبعد أن لم يعد الحيوان الطوطم يقوم مقام الأب، أصبح هذا الأب — موضعُ الخوف والبغض، والتقديس والغيرة فى آن واحد — أصبح نموذجاً أولياً للإله ذاته. وقام فى نفس الإبن صراع بين التمرد على أبيه وبين محبته له خلال محاولات متتالية للتوفيق بينهما، بغية التكفير عن فعلة اغتيال الأب من ناحية، وتدعيم المنافع التى أثمرت عنها من ناحية أخرى. هذه النظرة للديانة تلقى ضوءاً قويًّا على الأساس السيكولوجى للديانة المسيحية، التى لا تزال وليمة الطوطم توجد فيها مع تحريف ضئيل على شكل التناول [١]. وأودّ أن أذكر صراحة أن تلك الملاحظة الأخيرة لم تكن ملاحظتى أنا بل توجد فى مؤلفات «روبرتسون سميث» و «فريزر».

اتخذ «تيودور رايك» و «ج. روهيم» عالِم الأجناس، الاتجاه الفكرى الذى رسمته فى "الطوطم والتابو"، وقاما فى سلسلة من المؤلفات الهامة بتنميته وتوسيعه أو تصحيحه. وقد عدت إليه أنا غير مرة منذ ذلك الحين، إبان بحوثى فى "الإحساس اللاشعورى بالذنب" (الذى يلعب أيضاً دوراً هامًّا مع غيره من دوافع العصاب) وفيما قمت به من محاولات لتقريب الصلة بين

(١) تناول القربان المقدس.

علم النفس الاجتماعى وعلم نفس الفرد [١] . واستفدت فضلاً عن ذلك من فكرة تراث قديم تخلف عن عصر "القبيلة الأولى" من تطور الإنسانية فى تفسير القابلية للتنويم .

ولم يكن لى من نصيب مباشر فى غير ذلك من تطبيقات للتحليل النفسى إلا قدراً ضئيلاً ، بالرغم من أنها ليست أقل أهمية . إن هى إلا خطوة واحدة بين أخيلة العصابيين وبين أخيلة الجماعات والشعوب كما نجدها فى الأساطير ، والقصص ، والحكايات الخرافية . فأصبح علم الأساطير مجالاً خاصاً « لأوتورانك » ؛ فتأويل الخرافات ، وردُّها إلى عقد الطفولة اللاشعورية المألوفة ، والاستعاضة عن التفسيرات التنجيمية باكتشاف الدوافع الإنسانية ، كل ذلك يرجع إلى حدّ كبير إلى جهوده التحليلية . وكذلك وجد موضوع الرمزية كثيراً من الدارسين بين أتباعى . وأوجدتْ الرمزية أعداء كثيرين للتحليل النفسى ؛ فلم يكن بوسع كثير من الباحثين ذوى العقليات المتزمتة أن يغفروا للتحليل النفسى إقراره للرمزية ، الأمر الذى نتج عن تأويل الأحلام . ولكن التحليل النفسى براء من اكتشاف الرمزية ، فقد كانت معروفة منذ أمد بعيد فى مواطن فكرية أخرى (مثل الأدب الشعبى ، والخرافات ، والأساطير) والدور الذى تلعبه فيها أكبر منه فى "لغة الأحلام" .

لم أسهم أنا بشىء فى تطبيق التحليل فى التربية . ولكن كان من الطبيعى أن تجتذب الكشوف التحليلية الخاصة بالحياة الجنسية للأطفال وتطورهم النفسى انتباه المربين وتجعلهم يرون مشاكل التربية فى ضوء جديد . فكان الدكتور « أوسكار پفيستر » الراعى البروتستانتى بزيورخ سبّاقاً لا يكلُّ فى هذا المضمار ، شق طريقه دون أن يرى ثمة تعارضاً بين استخدام التحليل وبين الاحتفاظ بدينه ، ولو أن ذلك كان فى الحقيقة على نحو متسامٍ . وأذكر من الكثيرين الذين سايروه فى عمله « الدكتورة هَجْ هلموت» والدكتور « س . برْنفيلد »

(١) «الأنا والهو» ، و «علم النفس الاجتماعى وتحليل الأنا» . (المترجم)

وكلاهما من فيينا[١]. أما تطبيق التحليل فى تربية الأطفال تربية وقائية وإصلاح أولئك الذين ، برغم أنهم ليسوا عصابيين بالفعل إلا أنهم حادوا عن سواء النمو ، فقد أفضى إلى نتيجة واحدة ذات أهمية عملية . فلم يعد ممكناً قصر مزاولة التحليل النفسى على الأطباء وحرمان غيرهم منه . بل إن أى طبيب لم يتلق تدريباً خاصًّا ، يعدّ على الرغم من شهادته غير طبيب فى التحليل ، فى حين أن من ليس طبيباً وتلقى تدريباً ملائماً ؛ بوسعه مع الرجوع عند اللزوم إلى طبيب ما ، أن يضطلع بالعلاج التحليلى ، لا الأطفال فحسب بل والعصابيين أيضاً .

مر التحليل النفسى بعملية تطور لم تكن ثمّ جدوى فى معارضتها ، حتى أصبح لفظ " التحليل النفسى " ذاته لفظاً مبهماً . فبعد أن كان فى الأصل اسماً لوسيلة علاجية خاصة ، أضحى الآن فضلاً عن ذلك اسماً لعلم ، هو علم العمليات النفسية اللاشعورية . يتعذر على هذا العلم فى ذاته أن يتناول مشكلة ما تناولاً كاملاً ، ولكن يلوح أن مصيره إلى تقديم معونة قيمة فى عديد من فروع المعرفة . وإن مجال تطبيق التحليل النفسى لا يقل اتساعاً عن مجال تطبيق علم النفس ، الذى يعتبر التحليل النفسى له مكملاً عظيم الأهمية .

وهكذا يحق لى أن أقول عند ما أُرجع البصر إلى ما أديته فى حياتى من أعمال ، أننى وضعت كثيراً من البدايات وأوحيت بكثير من الأمور ، التى سيخرج منها شىء فى المستقبل ولو أنه لا يسعنى أن أتكهن أكثيراً يكون أم قليلاً . وعلى أية حال ، أستطيع أن أعرب عن رجائى فى أن أكون قد شققت الطريق إلى تقدم هام فى المعرفة الإنسانية .

---

(١) مذكرة إضافية ، عام ١٩٣٥ : منذ كتابة هذه الكلمات كسب تحليل الأطفال على الخصوص اندفاعاً قوياً بفضل بحوث السيدة « ميلانى كلاين» وابنتى « آنا فرويد » .

تذييل (١٩٣٥)

لعل المشرف على هذه السلسلة من السير الخاصة لم يخطر بباله ، على ما أعلم ، أنه بعد انقضاء فترة من الزمن قد يلحق بأحدها تذييل له ؛ ولعل ذلك ما لم يحدث إلا فى كتابى هذا . إذ اضطلعت بهذه المهمة لأن ناشرى الأمريكى رغب أن ينشر هذا المؤلّف الصغير فى طبعة جديدة . وقد ظهر لأول مرة فى أمريكا عام ١٩٢٧ (نشر برنتانو) تحت عنوان « دراسة سيرتى الخاصة » ، أصدر دون وجه حق فى مجلد واحد يضم بحثاً آخر « مشكلة قيام غير الأطباء بالتحليل » ، أطلق عنوانه على الكتاب فى مجموعه فأخفى بذلك هذا المؤلّف .

تتضمن هذه الصفحات مسألتين : تاريخ حياتى ، وتاريخ التحليل النفسى . وهما يتشابكان فى نسيج واحد . فدراسة حياتى الخاصة تبين كيف كان التحليل النفسى كل ما تنطوى عليه حياتى ، وتقرر بحق أن خبراتى الشخصية ليست لها أهمية إن قورنت بصلاتى بذلك العلم .

وقد هيئ لى قبل أن أكتب هذه الدراسة بوقت وجيز أن حياتى توشك أن تنتهى بسبب مرض خبيث عاودنى ؛ ولكن براعة الجراحة أنقذتنى عام ١٩٢٣ فأتيح لى أن أواصل حياتى وعملى ، ولكن فى غير برء من الألم . ومنذ ذلك الحين لم أتوقف عن عملى التحليلى أو عن التأليف لفترة تزيد عن عشرة أعوام والدليل على ذلك أننى أنجزت المجلد الثانى عشر من الطبعة الألمانية لمجموع مؤلفاتى . ولكننى أرى أن تغيراً ذا بال طرأ علىّ . ذلك أن الخيوط التى تشابكت فيما بينها إبان تطورى ، بدأت فى ذلك الحين تنفصل ؛ فالاهتمامات التى اكتسبتها فى الشطر الأخير من حياتى أخذت تتقهقر ، فى حين عادت إلى البروز الاهتمامات القديمة الأصلية . حقّاً إننى أنجزت فى ذلك العقد الأخير أطرافاً هامة من البحث التحليلى ، كمراجعة مشكلة القلق فى كتابى « التعطيل والعرَض والقلق » المنشور

عام١٩٢٦ أو كالتفسير البسيط « للتهيج الجنسى الشاذ من أشياء معينة كالملابس» الذى استطعت كتابته عام ١٩٢٧ . ولكن لا بدّ لى أن أقول إنه منذ وضعت فرضى القائل بوجود ضربين من الغريزة (غريزة الحب وغريزة الموت) ، ومنذ اقترحت تقسيم الشخصية النفسية إلى ذات ، وذات عليا ، وهو ، (عام ١٩٢٣) لم أضف شيئاً جديداً حاسماً إلى التحليل النفسى :

فكل ما كتبته فى الموضوع منذ ذلك الحين هو إما غير جوهرى وإما كان يمكن لغيرى أن يكتشفه بعد قليل . وقد ترتب ذلك على تغيير طرأ على نفسى ، تغيير قد يوصف بأنه طور من أطوار الارتداد فى تطوّرى . إذ رجع اهتمامى ، بعد جولة استغرقت عمراً بأكمله خلال العلوم الطبيعية ، والطب ، والعلاج النفسى ، إلى المشاكل الثقافية التى طالما اجتذبتنى من قبل ، حينما كنت لا أزال يافعاً لم يكد يتهيأ بعد للتأمل . فكنت قد حاولت بالفعل ، وأنا فى قمة عمل التحليل النفسى عام ١٩١٢ ، أن أستفيد من أحدث كشوف التحليل فى البحث عن أصول الدين والأخلاق ، وذلك فى كتاب « الطوطم والتابو » . ومضيت الآنَ بهذا العمل مرحلة أخرى فى رسالتين ظهرتا بعد ذلك « مستقبل وهم » (١٩٢٧) و « المدنية ومتاعبها » (١٩٣٠) . فأدركت فى وضوح متزايد أن أحداث التاريخ البشرى ، والتفاعلات فيما بين الطبيعة البشرية ، والنمو الثقافى ، ورواسب خبرات العصور الأولى (وأبرز مثل لها الديانة) إن هى إلا انعكاس للصراع الدينامى بين الذات ، والهو ، والذات العليا ، ذلك الصراع الذى يدرسه التحليل النفسى فى الفرد ــ وأنها تكرار العمليات نفسها على نطاق أوسع . وفى "مستقبل وهم" أعربت عن تقديرٍ للدين سلبيٍّ فى جوهره . ثم وجدت فيما بعد صيغة أعدل فى تقدير الدين .

إذ مع التسليم بأن قوة الدين تكمن فيما ينطوى عليه من صدق : بينت أن ذلك الصدق ليس صدقاً ماديّاً ولكنه صدق تاريخى .

هذه الدراسات ، التى ، برغم كونها صدرت عن التحليل النفسى ، إلا أنها

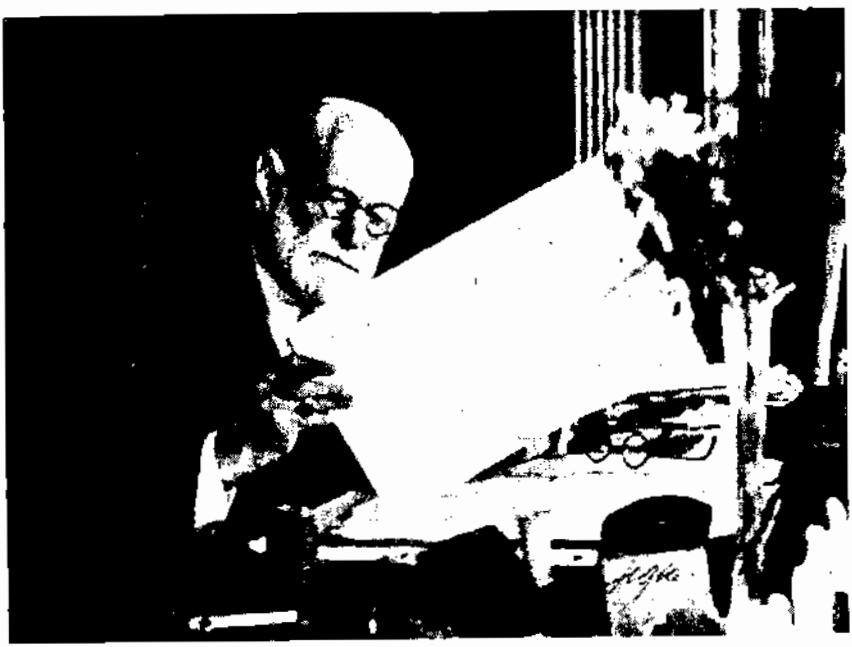

فرويد يراجع پروفات كتابه « موسى والوحدانية »

تتجاوز حدوده تجاوزاً بعيداً ، ربما كانت أكثر من التحليل النفسى ذاته كسباً لرضى الجمهور . وربما لعبت دوراً فى خلق ذلك الوهم الذى لم يعش غير زمن يسير ، وهو أننى كنت من بين الكتاب الذين يرحب شعب عظيم كالشعب الألمانى بالاستماع إليه . فى عام ١٩٢٩ ، أفرد لى « توماس مان » ، وأحد المتحدثين الذين يثق بهم الشعب الألمانى ، مكاناً فى تاريخ الفكر المعاصر بعبارة جدّ ودّية ، عميقة المعنى . وبعد ذلك بقليل ، أقيم لابنتى « آنا » ، نيابة عنى ، حفل رسمى فى « رات هاوس » « بفرانكفورتون مين » بمناسبة منحى جائزة « جوته » لعام ١٩٣٠ . وكان ذلك ذروة حياتى كمواطن . ثم لم تلبث بلادنا أن تقلصت حدودها ولم يعد يهم الأمة أن تعرف عنا شيئاً .

وهنا أستبيح لنفسى أن أختتم هذه المذكرات عن حياتى الخاصة . فلم يعد لأحد أن يعرف أكثر من ذلك عن أمورى الشخصية — عن كفاحى وخيبتى ونجاحى . وعلى كل حال فقد كنت فى بعض كتاباتى الأخرى (مثل تأويل الأحلام وسيكوپاثولوچية الحياة اليومية) أكثر وضوحاً وصراحة مما ألفه الناس عادة حين يصفون حياتهم لمعاصريهم أو لخلفهم . ولم يكن الإنصاف جزائى ، ولا تسمح لى خبرتى أن أنصح أى فرد أن يحذو حذوى .

ويتعين على أن أضيف بضع كلمات عن تاريخ التحليل النفسى خلال العَقْد الأخير . لم يعد ثمة شك أنه سوف يستمر ؛ فقد أثبت قدرته على البقاء والنموّ بوصفه فرعاً من فروع المعرفة وطريقة من طرق العلاج . وقد تزايد زيادة كبيرة عدد المعتنقين له (الذين ينتظمون الجمعية الدولية للتحليل النفسى) ففضلا عن الجماعات المحلية القديمة (فى ڤيينا ، وبرلين ، وبوداپست ، ولندن ، وهولندا ، وسويسرا ، وروسيا) ، أخذت جمعيات أخرى تتكوّن منذ ذلك الحين فى پاريس ، وكلكتا ، وتكونت جمعيتان فى اليابان ، وعدة جمعيات فى الولايات المتحده ، وتكوّنت أخيراً جمعية فى بيت المقدس وأخرى فى جنوب أفريقيا واثنتان فى سكندیناوة . وتنشئ هذه الجمعيات (أو هى بسبيل أن تنشىء) من أموالها

الخاصة معاهد تدريب ، يجرى فيها تعليم مزاولة التحليل النفسى طبقاً لبرنامج موحّد، وتشمل عيادات خارجية يقوم فيها كل من المحللين المدربين والطلاب بعلاج مجانى للمرضى ذوى الدخل المحدود ، وفى كل عامين يُعقد أعضاء الجمعية الدولية للتحليل النفسى مؤتمراً تُقرأ فيه البحوث العلمية وتُتخذ فيه القرارات التنظيمية . وقد انعقد الثالث عشر من هذه المؤتمرات (التى لم يعد فى وسعى أن أحضرها) فى « لوسرن » عام ١٩٣٤ . يشترك أعضاء الجمعية فى اهتمامات واحدة هى بمثابة البؤرة التى يشع منها عملهم فى اتجاهات مختلفة . فبعضهم يلحّ على زيادة معرفتنا بعلم النفس وضوحاً وعمقاً ، فى حين يختص غيرهم بتوثيق الصلة بالطب والطب العقلى. أما من الناحية العملية فقد اضطلع بعض المحلّلين بمهمة كسب اعتراف الجامعات بالتحليل النفسى وإدخاله ضمن المنهج الطبى ، فى حين قنع غيرهم بالبقاء بمعزل عن هذه المعاهد مؤمنين أن التحليل النفسى ليس أقل أهمية فى مجال التربية منه فى مجال الطب . ويحدث من حين إلى آخر أن يعتزلنا أحد المحللين إذ يصر على تأكيد إحدى مكتشفات التحليل النفسى أو نظراته على حساب كل ما عداها . ومع ذلك فإن الشعور فى مجموعه شعور الرضا — عن عمل جدّىٍّ رفيعٍ مستواه .

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٥٨٣٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4596-8

١ / ٩٤ / ٦٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)